

السلوانة الرابعة

سلوانة الرضى

قال الله تقدس اسمه عاتبا من خطأ حكمته وتدبيره وسخط قسمته وتقديره ﴿فَإِنْ أَعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨].

ثم نبههم على ما حرّموه من فضيلة الرضا بقوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

ووصف صفوته من خلقه بالرضى فقال ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]. ومما يفهمك معنى قوله تعالى ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ما روى أن موسى عليه السلام قال: إلهي ثلثني على عملٍ إذا عملته رَضِيتَ به عني . فأوحى الله عز وجل إليه : إنك لا تطيق ذلك ، فخرّ موسى ساجداً مُتَضَرِّعا إلى الله سبحانه ، فأوحى الله عز وجل إليه : يا ابن عمران رِضاي في رِضاك بِقَضائِي .

خبر نبوي في الرضا

مما روينا أن النبي صلى الله عليه وآله قال ﴿اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ﴾^(١).

قيل : إنما قال بعد القضاء ؛ لأن الرضى بعد القضاء إنما هو عبارة عن العزم على الرضى ، وتوطين النفس على الرضا بالقضاء إذا نزل ، وإنما يتحقق الرضا بعد حصول القضاء .

خبر نبوي في مثل ذلك

مما روينا أن النبي صلى الله عليه وآله لقي رجلا من أصحابه وقد أجهدته المرض والحاجة ، فأنكره النبي صلى الله عليه وآله وقال له : ﴿مَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى ؟ قَالَ : الْمَرَضُ وَالْحَاجَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ لَهُ : أَفَلَا أَعْلَمُكَ كَلَامًا إِنْ أَنْتَ قَلْتَهُ أَذْهَبَهُ

(١) جزء من حديث أخرجه النسائي : كتاب السهو ، باب الدعاء بعد الذكر (٥٥/٣) والإمام أحمد في مسنده (١٩١/٥) وكرر المتقى الهندي في كنز العمال (٣٧٤٢) وعزاه للطبراني في الكبير عن فضالة بن عبيد .

اللَّهُ بِهِ عَنكَ؟ فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا يَسْرِي بِحِطِّي مِنْهَا أَنِّي شَهِدْتُ
مَعَكَ بَدْرًا وَالْحُنَيْنِيَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَهَلْ لِأَهْلِ بَدْرٍ وَالْحُنَيْنِيَّةِ مَا
لِلْفَتَعِ الرَّاضِيِ).

منثور ومنظوم حِكْمٌ فِي الرَضَى

رَوَى أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ (١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَتَبَ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ (٢):
أَمَا بَعْدُ: فَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ فِي الرِّضَا، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَرْضَى وَإِلَّا فَاصْبِرْ.

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ: أَنَّ الرِّضَا هُوَ إِطْرَاحُ الْإِقْتِرَاحِ عَلَى الْعَالَمِ بِالصَّلَاحِ، إِذَا
كَانَ الْقَدْرُ حَقًّا كَانَ سُخْطُهُ حُمَقًا، مِنْ رَضَى حِطِّي، وَمَنْ تَرَكَ الْإِقْتِرَاحَ أَفْطَحَ
وَأَسْتَرَّاحَ، كُنْ بِالرِّضَى عَامِلًا قَبْلَ أَنْ تَكُونَ لَهُ مَعْمُولًا، وَسِرْ إِلَيْهِ عَادِلًا وَإِلَّا
صِيرْتَ إِلَيْهِ مَعْمُولًا.

وَقِيلَ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ (٣): مَنْ أَيْنَ أَوْتَى الْخَلْقُ؟ فَقَالَ مَنْ قَلَّةِ الرِّضَا عَنْ

(١) عمر بن الخطاب: ابن نفيل القرشي العدوي، أبو حفص أمير المؤمنين، ولد بعد الفيل
بثلاث عشرة سنة، وكان إليه السفارة في الجاهلية، وكان عند المبعث شديدًا على
المسلمين، ثم أسلم، فكان إسلامه فتحاً على المسلمين، وفرجاً لهم عند الضيق، قال
عبد الله بن مسعود: وما عبدنا الله جهرة حتى أسلم عمر، وقال عنه الرسول ﷺ
«اللهم أيد الإسلام بعمر»، وروى عن النبي ﷺ أنه بشره بالجنة وشهد له بالشهادة،
ومناقبه ﷺ لا يسعها هذا المكان. الإصابة (٥٧٥٢) الرياض المستطابة (١٤٧) أسد
الغاية (٣٨٣٠).

(٢) أبو موسى الأشعري: عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب، الإمام الكبير،
صاحب رسول الله ﷺ التيمي الفقيه المقرئ، وهو معدود فيمن قرأ على
النبي ﷺ. أقرأ أهل البصرة، وفقههم في الدين، وولى إمرة الكوفة لعمر، وإمارة
البصرة، جاهد مع النبي ﷺ وحمل عنه علماً كثيراً. مات سنة (٤٤هـ) سير أعلام
النبلاء (١٨٨).

(٣) الحسن البصري: الحسن بن أبي الحسن يسار، أبو سعيد، مولى زيد بن ثابت، وكانت
أمه مولاة لأم سلمة أم المؤمنين المخزومية. وكان سيد أهل زمانه علماً وعملاً. وكان
من أعلم الناس بالحلال والحرام. مات في أول رجب سنة (١١٠هـ) وكانت جنازته
مشهودة، صلوا عليه عقب الجمعة بالبصرة، فشيعة الخلق، وازدحموا عليه، حتى إن
صلاة العصر لم تقم في الجامع. سير أعلام النبلاء (٦٠٠).

الله، فقيل له : ومن أين قلّ رضاهم عن الله ؟ قال : من قلة المعرفة بالله .

ومما قلته في الرضى :

يَا مُقْرَعِي فِيمَا يَجِي
عِنْدِي لِمَا تَقْضِيهِ مَا
وَمِنَ الْقَطِيعَةِ اسْتَعِيدُ
وَرَأِحِي فِيمَا مَضَى (١)
يُرْضِيكَ مِنْ حُسْنِ الرُّضَى
مُصْرِحاً وَمُعْرِضاً

ومن ذلك :

كُنْ مِنْ مُدْبِرِكَ الْحَكِيمِ
وَارْضِ الْقَضَاءَ فَإِنَّهُ
عَلَا وَجَلَّ عَلَى وَجَلِّ (٢)
حَتَّمْ أَجَلَ لَهُ أَجَلَ

ومن ذلك أيضاً :

يَأْمَنُ يَرَى حَالِي وَأَنْ لَيْسَ لِي
وَلَيْسَ لِي مُلْتَحِدٌ ذُونَهُ
حَاشَا لِذَلِكَ الْفَضْلِ وَالْعِزِّ أَنْ
وَإِنْ تَشَأْ هُلِكِي فَيَا مَرْحِباً
كُلُّ عَذَابٍ مِنْكَ مُسْتَعْدَبٌ
فِي غَيْرِ مَا يُرْضِيهِ أَوْطَارُ (٣)
وَلَا عَلَيْهِ لِي أَنْصَارُ (٤)
يَهْلِكُ مَنْ أَنْتَ لَهُ جَارُ
بِكُلِّ مَا تَقْضِي وَتَخْتَارُ
مَا لَمْ يَكُنْ فَقْدَكَ
وَالنَّارُ

ومنه أيضاً :

إِذَا أَنَا لَمْ أَدْفَعْ قَضَاءَ كَرْمَتِهِ
فَصَبْرِي لَهُ مِنْ حُسْنِ مَعْرِفَتِي
بِشَيْءٍ سِوَى سُخْطِي لَهُ وَتَبْرَمِي
كَمَا أَنْ رِضْوَانِي بِهِ مِنْ
تَكْرَمِي

روضة راقية ورياضة فائقة

قيل إن يزدجرد الأثيم ابن سابور ذي الأكتاف ، لما وُلِدَ له ابنه بهرام جور ،

(١) المقرع : قابل المشورة .

(٢) الوجل : الخوف .

(٣) الأوطار ، مفردهما وطر : وهو الحاجة والبغية .

(٤) الملحد : الملجأ .

أخبره منجموه بقوة مولده ، وسعادة جدّه ، ووصول الملك إليه بعد شدة ومحنة وطول اغتراب ، وأنه ينشأ بين أمة نائية^(١) ؛ ذات هم عليه ، وحلوم زكية^(٢) ، ونفوس أبية ، وبهم يصير الملك إليه ، فأجال يزدجرد فكره في خصائص الأمم ومزاياها ، فرأى أن العرب أولى الأمم بتلك الأخلاق التي وصف له المنجمون ، ووقع اختياره عليهم .

فكتب إلى النعمان الأكبر ابن امرئ القيس بن عدى بن نصر اللخمي^(٣) فاستحضره وأشخص إليه جماعة وافرة من رؤساء العرب وساداتها ، فوصلهم وبرهم وأخبرهم بما يريد من تمليك النعمان عليهم ، فأنعموا عليه بذلك ، فشرف النعمان وتوجه وملكه عليهم وعلى العرب وسلم إليه ابنه بهرام ، وأمره بكفالتة ، فأخذة النعمان واسترضع له أربعة نسوة ، صحبحات الأجسام ، ذكيات الفهوم سنيات الأعراق وسريات الأخلاق ؛ امرأتين من العرب وامرأتين من الفرس ، وأجرى عليهن ما يصلحهن ، وانكأ ببهرام إلى بلاده فبنى له الخورنق^(٤) ؛ لما اتفق عليه من طيب الهواء وفضيلة الماء ، فأرضع المرضعات بهرام أربعة أعوام ثم فصلنه ، وقد صار غلاما جفر السرعة^(٥) نشأته وشبابه .

ولما استكمل بهرام خمسة أعوام قال للنعمان : انظر في تعليمي ما يحتاج الملوك إليه ، فحدث بينهما محاوراة ، ليس هذا موضع ذكرها أودعناها كتابنا المسمى (درر الغرر) المضمن أنباء نجباء الأبناء ، فكتب النعمان إلى يزدجرد

(١) أي ذات شرف ورياسة .

(٢) العلوم : مفردا حلم : وهو العقل .

(٣) النعمان الأكبر : ابن امرئ القيس بن عدى بن نصر بن الحارث بن عمرو بن لخم بن عدى بن مرة بن أدد بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب من قحطان ، ملك ثمانين سنة وبنى الخورنق في ستين سنة . قال المسهلي : الخورنق قصر بناه النعمان الأكبر لسابور ليكون ولده فيه عنده ، وبناه رجل يقال له سنمار في عشرين سنة ولم يرى بناء أعجب منه فخشي النعمان أن يبني لغيره مثله ، فألقاه من أعلاه فقتله ففي ذلك يقول الشاعر :

جزائي جزاء الله شر جزائه جزاء سنمار وما كان ذا ذنب

البداية والنهاية (١٧٩/٢) .

(٤) الخورنق : قصر بظهر الحيرة بناه النعمان الأكبر ، كما تقدم . معجم البلدان (٤٤٦٢) .

(٥) أي متوسط ومعتدل في نشأته .

يسأله أن ينفذ إلى ابنه رجالا من حكماء الفرس وفقهائهم ومعلمي كتابهم ، فأرسل إليه يزيدجرد بحاجته منهم ، ثم إنَّ النعمان ضم إلى بهرام رجلا من علماء العرب وحكمائها ودهاتها ، كان ذا بصيرة بالسياسة وخبرة بكثير من اللغات وحفظ لأخبار الملوك وسيرتها ، ومعرفة بأيام العرب وغيرها ، وكان اسمه حلسا ، فأفاد بهرام كل واحد من معلميه ما عنده من العلم .

فلما استكمل من السن اثنتى عشرة سنة ؛ فاق معلميه كلهم ، واعترفوا بفضله عليهم ، واستغناؤه عنهم ، فصرفهم النعمان مكرمين ، وكره بهرام مفارقة حلس الحكيم ؛ لكونه يجد عنده من المحاسن والآداب والسياسة والأخبار والدعاء ما لم يره مجتمعا فى غيره ، واستدعى النعمان من يزيدجرد من يعلم ولده الرماية والفروسية وما يحتاج إليه المحارب ، فبعث إليه يزيدجرد بمن أراد منهم ، فمكثوا عند النعمان ثلاث سنين ، فلما استولى على جميع ما عندهم من ذلك صرفهم مكرمين وأمسك حلسا لشغفه به .

ولما استوفى من السن خمس عشرة سنة ؛ استأذن النعمان الملك يزيدجرد فى القدوم عليه بولده ، فأذن له فى ذلك ، فوفد النعمان على يزيدجرد بابنه بهرام وأوفد معه رؤساء العرب وزعماءها ، فأحسن يزيدجرد وفادتهم وأكرم نزلتهم ، وأجزل صلة النعمان ، وضاعف تشريفه وسرحه وأمسك ابنه بهرام عنده ، واحتبس بهرام حلسا لعلوق نفسه به .

وكان يزيدجرد فظاً غليظ القلب ، شديد الكبر غليظ الحجاب ، مجترئاً على سفك الدماء ، واغتصاب الأموال ؛ ولذلك سمي الأثيم ، فعامل ابنه بهرام بالقسوة التى طبع عليها ، وأتعبه وكده واستعمله على مجلس شرابه ، فتبرم بهرام بما ناله من أبيه وعيل صبره وضاق نرعه ، فشكا ذلك إلى حلس فرق حلس لشكواه ، ثم أقبل عليه فقال له ما معناه : جلى الله كربك وأعلى كعبك ، وأطاب ذكرك فى قلوب الأمم وأفواهها ، وكب لعزك ملوك العرب والعجم لجباها .

وقال له : إن أولى الناس بإمحاء النصيحة^(١) ؛ من كان معروفا بها ،

(١) أى بإخلاص لا غش فيها .

ومندوباً لها ، ومدعوا إليها ، ومحضوا عليها .

وإنه قيل : النصائح بشعة المبادئ حلوة العواقب ، فهي كالأدوية ؛ يسوء استعمالها ، ويسر مالها ، وينم عيها^(١) ، ويمدح غيها^(٢) .

وكان يقال : الأمين يصحب الملك باللزوم على الخدمة ، والمبالغة فى النصيحة ، والخائن يصحب الملك بحسن المداراة وإفراط التخلل .

وكان يقال : إنما يسعد النصحاء بمثله إذا كان مؤيداً بفضيلة العقل ، فإن لم يكن كذلك شقى به النصحاء وسعد به نوو الملق ؛ وهذا لأن الناصح ينفق على من نصح له من عقله ، وبالعقل يدرك العقل .

وكان يقال : أشد اللوم أن تضن بالنصح على من سمح لك بالثقة ، وأن تستر الصواب عن من هتك لك حجاب سره .

وكان يقال : أولى العقلاء النصحاء بقبولك منه وإقبالك عليه من كانت سعادتك شرطاً فى سعادته وعله لها ، ومن كنت معه بهذه المنزلة فسعيه لك سعى لنفسه ، ونبه عنك ذنب عنه .

ثم قال جلس لبهرام : إنه قد ساعنى تبرم ابن الملك وضجره لما لقي من خدمة أبيه الملك ، وأنا أشير على ابن الملك بإظهار المسرة بما أظهر به التبرم والضجر ، إذ كان الملك قد استعمله على عمل لا يبد للعامل فيه من إظهار البشر والطلاقة ، وإن من صحب الملوك بما لا يوافقها تحركت عليه بالغضب ، ولا ينبغي مع هذا أن يظهر من ذلك ما يبطن خلفه ، فإن الرياء ينصل^(٣) عن الطبع نصول الخضاب^(٤) عن الشعر ؛ ولكن ليتأمل ابن الملك القضية التى كرهها بعين العدل يظهر له حسنها ، وذلك أن الملك استعمله على مجلس شرابه الذى هو جماع لذته ، وجالب طربه ومسرتة وراحة نفسه من نصب التدبير

(١) جرَّعها .

(٢) الغب : عاقبة الشيء كالمغبة .

(٣) نصلت اللحية : خرجت من الخضاب .

(٤) الخضاب : ما يخضب به اللحية وغيرها ؛ أى ما تلون به ، وعادة يكون الخضاب بالحناء .

ومشقتة ، ووكل إليه مع هذا حراسة مهجته ورضيه لها بحفظها فى مجالس خلوته ، ووثق بكفايته فى صون شرابه من بلية وآفة يقصده به أعداؤه من جهة الشراب ، أو خلل يدخله على عقله السكر والاضطراب ، وكيف يصلح أن يعدل عن الولد الحبيب النجيب بهذا العمل العلى قدره العظيم خطره ؟ أم كيف تطيب نفس الولد الفاضل أن يرى أباه صارفا هذا العمل إلى سواه ؟ فليصرف ابن الملك فكره إلى ما ذكرته له ؛ ليكون ما يظهره من الغبطة بهذه الخطة راجعا إلى عقد يوافقه ومعنى يطابقه ، ولا يتخلق من ذلك بما يتمنى رفضه ، ويبرم منه ما يستحب نفضه ، فينم عليه بما أسره توسم الأبصار^(١) وتكهن الأفكار^(٢) .

فإنه كان يقال : الرياء سراب يخدع الفطن القاصرة ، ولا يخفى عن البصائر الباصرة .

وكان يقال : إنما ينبسط سلطان الرياء على السمع والبصر اللذين يدركان الشهادة دون الغيب ، فأما العقل فلا ينبسط سلطان الرياء عليه ؛ لأن الأول الآخر قد كاشفه بكثير من الغيب لاختصاصه إياه .

ثم قال جلس : قد فطن الدب على بلادته لرياء القرد ، فقال بهرام : أخبرنى عن ذلك .

فقال جلس : نكروا أن دبا كان يسرح فى غيضة ذات أشجار مثمرة ، وكان فى تلك الغيضة قرد ، فكان الدب يرى قوة القرد على رقى الشجر والتطرف لأغصانها ، ويمكنها بذلك من اجتناء أطايب الثمرات ، فحدث نفسه بأن يصيد قردا منها فيكلفه أن يجتئى له الثمر ، فصعد شجرة وألقى نفسه منها ، والقردة تنظر إليه وجعل يتضرر ويتخبط طويلا ، ثم تماوت فخفت وفتح فمه وأخفى نفسه ، واجتمع القردة لرؤيته ، فقال لها حازم منها : إنه لايبعد أن يكون هذا الدب متصنعا خادعا وإن الحزم أن يتجنب ويحذر منه ، فإن لم يكن بد من الدنو منه ، فهلم نجتمع حطبا وندوره حوله ونضرم فيه نارا ، فإن كان متصنعا افتضح وإن كان ميتا فلا ضرر علينا فى احتراقه .

وأنه كان يقال : عدوك ضدك ، وحكم الضدين التئانى ، والتتافر ، والتباين

(١) أى حُسن وتبيين الأبصار .

(٢) الادعاء بمعرفة الغيب .

، والتدابير .

وكان يقال : لا تطأ أرضاً وطنها عدوك إلا على توق واحتراس ، وتوقى
افتراس ، ولا يغرك خروجه منها وبعده عنها ، فربما رتب فيها شبাকা ، ونصب
لك بها أشراكا .

وكان يقال : لا تغش عدوك إلا متسلحا متحرزا متحفظا ، ولا يغرك منه
استسلامه وإقاؤه السلاح ، فما كل سلاح يدرك بالبصر ، وقد غرّ الراهب اللص
بمثل تلك فتم له عليه ما أراد . فقالت القردة : أخبرنا عن ذلك .

فقال : ذكروا أن راهبا كان فاضلا من الرهبان وكان متبتلا في قلالية^(١) له
بظاهر اللانقية^(٢) ، وكان شيخا فانياً قد نهكته العبادة ، وكان النصارى يخصونه
بالصدقات فيقبلها ، ويعطيها أهل الفاقة^(٣) لزمده في الدنيا ، وأن لصا من
الصوص رأى كثرة ما يخص به الراهب من الصدقات ، فحدث نفسه بأن
يتسور^(٤) على قلاليته ، وظن أنه سيصيب عنده كثيرا .

فتحيل ليلة من الليالي حتى تسور القلالية وحصل مع الراهب في بيت تعبده ،
فوجده قائما يصلى والسراج يزهو في البيت فصاح اللص بالراهب : فرأيها
الشيخ قبل أن ألقى عنك رأسك ، فالتفت الراهب فرأى اللص ، وإذا هو شاب
شديد البنية في يده سيف مصلت ، فعلم أنه لا قبل له به ، فقطع صلته وفر بين
يدى اللص إلى ناحية من البيت في حائطها طاق^(٥) ، فأدخل الراهب رأسه
في الطاق ، ورد يديه إلى خلفه كما يصنع بالكتوف^(٦) ، فلما رأى اللص أن
الراهب قد استسلم وخبأ رأسه ألقى سيفه ووثب نحو الراهب ليقبض عليه ،

(١) القلالية : كلمة يونانية تعنى مسكن الأسقف والرهبان .

(٢) اللانقية : مدينة في سوريا على ساحل المتوسط وهي أيضاً ميناء . فتحها العرب قديماً .

وهي من أعمال حمص وهي غربي جبلة وهي الآن من أعمال حلب . معجم البلدان

. (١٠٥٣٢)

(٣) الفاقة : أهل الحاجة والفقير .

(٤) أى يصعد على الحائط .

(٥) نافذة .

(٦) الكتوف : الذى شدت يده إلى خلف الكتفين .

فانخسف به ما تحته وسقط في دهليز^(١) القلاية سقوطاً أو منه ، فمكث على حالته لا يجد محيصاً^(٢) عن الموضع الذي حصل فيه ، حتى أصبح فدل الراهب عليه ، فأخذ وصلب ، وقد كان الراهب قد اتخذ في طريق الطاق تقباً وجعل عليه طبقاً ينقلب بلولب إذا اعتمد عليه ، وغطاه ببعض فرش البيت ، فلما قصد إلى الطاق هارباً بين يدي اللص خطر من ذلك التقب وتخطاه لمعرفة بموضعه ، فلم يضع رجله على الطبق ، واللص لم يعرف ذلك ولا استعمل الحزم بالتحفظ ، بل عول على ما ظهر له من استسلام الراهب ولم يدرك أنه أعد له سلاحاً لا يدركه البصر .

فلما سمعت القردة المثل الذي ضربه لها حازمها ، توقفت عن الإقدام على الدب وانتشرت تجمع الحطب لإحراقه ، فأتى غر من القردة لم يكن حاضراً ذلك الموضع ولا سمع مقالة الحازم ، فدنا من الدب وأصغى بأذنه إلى أنف الدب ليسمع حس نفسه ، فقبض الدب عليه وعمد إلى عرق من عروق الخيزران^(٣) فربط طرفه في وسط القرد وكلفه أن يصعد الشجرة فيجتني له أطايب الثمر ويلقيها إليه ، والدب ممسك بالطرف الآخر من الخيزرانة ، فلبث بذلك بقية يومه ثم انصرف به الدب إلى غاره ، فأدخله فيه وسد بابه عليه بصخرة ، ولما أصبح غداً على القرد فأخرجه من الغار وانطلق به إلى الغيضة يجنى له الثمر عامة يومه^(٤) ، ثم راح به إلى الغار فسجنه به ، فلبث بذلك مدة والدب قد بلغ مناه ، والقرد في أسوأ حال وأعظم مشقة ، يظل نهاره في خدمة الدب ويبيت ليله في سجنه .

وكان يقال : من تعرض لما لا يعنيه تورط فيما لا يقبل له به ، وكان يقال : شهوات العاقل من وراء فكرته ، فإذا انبعثت له شهوة مرت بفكرته فنظر في مبادئها وعواقبها ويدبر فيها بحكم الرأي ، وفكرة الأحق من وراء شهوته فكلمها

(١) الدهليز : كلمة فارسية تعني المسلك الطويل الضيق بين الباب والدار .

(٢) مهرباً ومفراً .

(٣) الخيزران ، مفرد خيزرانة : وهو نبات كبير الحجم تستعمل عيدانه لصنع الكراسي أحياناً .

(٤) أي طوال يومه .

انبعثت له شهوة مرت نافذة لوجهها لا يصددها شيء . وكان يقال : إنما صار يسير المؤنة المتحملة للعدو شاقا ؛ لأن الأرواح تحتل منها أضعاف ما تتحمل الأبدان، فيصير الأذى بها عاما ، وليس كذلك المؤمن المتحملة للحبيب ؛ لأن الأرواح تتلذذ بها وتستخدم الأبدان لها.

قيل : ثم أن القرد تفكر في حاله ، فظهر له أن نصيحته في خدمة الدب تمنعه من الخلاص منه ، فندم على نصحه في خدمته وعلم أنه لن ينجيه منه إلا الحيلة ، فطالت فكرته في ذلك إلى أن اتجه له وجه الحيلة فيه .

وكان يقال : إذا كان المملوك ميت الشهوة ، بليد الفكرة ، رذل الهمة فهو سلّم لمالكة ، وإن لم يكن بهذه الصفات فإن له فيه شريكا هو أملك به من سيده ، وذلك أنه إذا كان متحرك الشهوة كان منقادا لطاعتها ، وإذا صحت فكرته أعملها في طلب الراحة من النصب^(١) ، والخلاص من الأسر وإقامة الحجج في الدفع عن نفسه ، وإذا سمت همته اتصف بالغضب والأنفة^(٢) والحد ، وتدبر بما يريد لا بما يريد سيده .

قيل : وكان مما عوّل القرد عليه من الخديعة للدب أن يتظاهر بضعف البصر ، فصار يلقي إلى الدب من الثمر ما لاخير فيه ، فزجره الدب عن صنيعه فلم ينزجر وضربه فلم يرتدع ، فلما طال عصيانه عليه قال له : إنى قد سئمت من زجرك وضربك ، وقد حدثت نفسى بأكلك لأنه لم يبق لى فيك منتفع

وكان يقال : إذا لم تجد من الخدمة إلا من أساء أدبه فاخدم نفسك ولا تستخدمه ؛ لأنه يحمل على قلبك من المشقة أضعاف ما تحمل على بدنك .

فقال له القرد : إنى لست على ما تصفنى به من سوء الأدب ولو قتلنتى لنندمت كما ندم الطحان حين قتل حماره . فقال له الدب : أخبرنى عن ذلك .

فقال : حكى أن طحانا كان له حمار يطحن به ، وكانت له زوجة سوء حبها وهى تحب جارا لها ، وذلك الجار الذى تحبه يبغضها ويمتدح منها ، فرأى

(١) التعب والإعياء .

(٢) عزة النفس .

الطحان فى منامه قائلاً بقول له : احترف فى موضع كذا من مدار الطاحونة تجد كئزاً ، فحدث امرأته برؤياه وأمرها بكتمانه .

وكان يقال : من زعم أنه يجد راحة فى إفشاء سره إلى غيره فيلتهم عقله؛ لأن مشقة الاستبداد بالسر وترك المشاركة فيه ، أقل من مشقة الحذر من انتشاره بسبب المشاركة فيه .

وكان يقال : أمران يسلبان الحر كمال الحرية وهما قبول البر^(١) ، وإفشاء السر . وشرح هذا إن قبلت برّه فقد أوجبت على نفسك الخضوع له ، والإحسان يرق^(٢) الإنسان ، وكذلك من أطلعته على سرّك فإن حذرَكَ من إفشائه يلزمك نل التقية^(٣) .

وكان يقال : المرأة مؤهلة لببيت تقمه ، وطعام ترمه ، وشبق تسكنه وتثير به، فَمَنْ أشركها فى أمره وأطلعها على سره فقد التحق بعالمها ، إذ ليس فى قواها الالتحاق بعالمه .

قيل : فلما حدث الطحان امرأته برؤياه ، أخبرت بها جارها الذى تهواه وتقربت بها من قلبه ، فواعدها أن يطرَقا الموضع ليلاً ليتعاونوا على حفره ، وفعلاً ذلك ، فوجدا الكنز واستخرجاه فقال جار المرأة لها : كيف نصنع بهذا المال ؟ قالت : نقسمه نصفين بالسواء ، ينطلق كل واحد منّا بنصفه إلى منزله وتفارق أنت زوجتك ، وأحتال أنا فى فراق زوجى ، ثم تتزوجنى فإذا اجتمعنا على النكاح جمعنا المال فكان بأيدينا .

فقال لها جارها : أنا أخاف أن يطغىك الغنى فتتكحى غيرى ، وأنه كان يقال : الذهب فى المنزل كالشمس فى العالم . وكان يقال : من بلغ من اليسار^(٤) ما فوق قدره تكرر لمعارفه ، وكان يقال : اليسار مفسدة للنساء لغلب شهواتهن على عقولهن ، وكان يقال : لا تسمح لولدك ولا لامرأتك وللخادمك بما فوق الكفاية ، إن طاعتهم لك بقدر حاجتهم إليك .

(١) أى الإحسان .

(٢) يستعبد .

(٣) أى الصيانة والستر والحذر .

(٤) السعة من العيش والغنى .

ثم قال لها : بل الرأي أن يكون جملة المال عندي ؛ لتحرصي على التخلص من زوجك واللحاق بي ، فقالت له المرأة : إني أخاف منك مثل الذي خفت مني ولست مسلمة إليك حظي من هذا المال ، فلا تحسدني على حظي منه وقد أترتك بالدلالة عليه ، وإنه كان يقال : إنما صار العدل والإنصاف مشكوراً عليهما لفساد الزمان ؛ لأن الشكر إنما يجب لمن تفضل بحق هو له ، فأما من أعطى الحق أهله ؛ فهو محمود لا مشكور .

فلما سمع مقالتها دعاه البغي والشره والحنز من نميمتها عليه إلى قتلها ، فقتلها وألقاها في موضع الكنز ، وبعثه الصبح فأعجله عن مواراتها ، واحتمل المال وخرج به ، ودخل الطحان على أثره ، فربط حماره في المدار ، وصاح به فمشى خطوات ثم اعترض الحفير^(١) والقتيل بين يديه في مداره ، فوقف فضربه الطحان ضرباً شديداً والحمار يتلوم ولا يمكنه التقدم ، والطحان لا يدري ما بين يديه ، فأخذ سكيناً ونخسه^(٢) نخسات كثيرة ، ثم استشاط^(٣) غضبه فطعنه بها على خاصرته^(٤) فمرت فيه السكين وسقط ميتاً . ولما انتشر الضوء رأى الطحان الحفير ووجد امرأته فيه قتيلاً فاستخرجها فرأى آثار الكنز فاشتد أسفه على ذهاب الكنز وهلاك المرأة والحمار ، فقتل نفسه .

فلما سمع الدب مقالة القرد قال له : قد ظهر فيما ضربت من المثل عنز الحمار فما عذرك أنت ؟ فقال له القرد : بصري ضعف وأخاف عليه أن يذهب بالجملة ، فإن رأيت أن تنظر في صلاحه فذلك بيدك .

فقال الدب : ومن لي بصلاح بصرك فإن فيه صلاحى ؟ فقال القرد : إن الأطباء لكثير ، ولكن العاقل لا يستطب لألمه من لم يكن من عالمه ، وإن للقردة بهذه الأرض طبيباً تصفه بإجادة الطب والزهد في متاع الدنيا ، وإني لأستروح العافية من تلقائه وأستلوح^(٥) الفرج في لقائه .

(١) الحفير : ما حفر من الأرض وهو القبر .

(٢) أى غرز السكين بجانبه .

(٣) أى اشتد واشتعل غضبه .

(٤) أى بطنه .

(٥) أى تبصر فيه .

فأجابه الدب إلى ما أراد ، فقصد به القرد قردا كان موصوفا بالخبيث والدهاء ، فلما بلغا إليه فر من الدب ، فقصد شجرة وقام الدب تحتها ، فقص عليه قصة غلامه ورغب إليه في مداولته ، فقال له للقرد الخبيث : دعه يطلع حتى أنظر إلى عينيه فأرخى له في الخيزرانة ، فصعد يتأمل عينيه ويسأله عن خبره ، فقص عليه خبره مع الدب ، وسأله أن يفتح له باب المكيدة في الخلاص من يده ، فقال له للقرد الخبيث : إني سأحمله على السهر ، فاحتل لنفسك بانتهاز الفرصة إذا نام وكن على حذر من أن يتلوم ليخديرك .

ثم أمره بالنزول ، فنزل ، وأقبل القرد الخبيث على الدب فقال له : إني ينبغي أن أعرفك داء عبدك قبل أن ألك على نواته ، إذ يستحيل العظم بالدواء من الجاهل بالداء ، فاعلم أن القردة إنما صحت جسومها ، وقلت لحومها ، وتوقفت فطنها وفهومها ؛ لأنها وفرت على السهر نواعيها ، وجعلت ليلها حظا من مساعيها .

وإنه كان يقال : كثرة النوم تجلب الضر وتسلب الأعمار .

وكان يقال : من لزم الرقلا حرم المراد .

وكان يقال : لا يصح أن يقال في حد الجود أنه سماحة النفس بالنفس ، ولو صح هذا لكان أجود الأجواد من كثر نومه ؛ لأنه سمح بحياته التي لا يجد له كفاء ولا يصيب منها عوضاً .

ثم قال القرد الخبيث للدب : إنك لما أخرجت عبدك هذا عما اعتاد أخذت عليه الضاد كما صنَّع بالطائر الذي أصيد لابنة الملك ، قتل له الدب : أخيرني عن ذلك .

قتل القرد : نكروا أن ملكاً من ملوك اليونانيين كانت له ابنة تكرم عليه جداً ، فهاجت بها المرة السوداء ، فأخذت عليها أنواعاً من الأمراض ، وبلغ بها الأمر إلى الامتناع من الغذاء والدواء ، فأسلر طبييها بأن تنقل إلى ارتفاع تشرف منه على بستان مونتق^(١) وماء جار ، فتعمل ذلك بها ، فرأت في اليوم الذي نقلت فيه إلى ذلك الطو طلقراً فيه من كل لون قد نزل على دالية^(٢) ، فكل

(١) أى مزهر جميل .

(٢) شجرة الكرم .

من عنبها ، ثم غرد تغريداً عجيباً بأنواع من النغم المطربة ، فارتاحت الجارية لما رأت وسمعت من الطائر واستدعت الغذاء .

وكان يقال : أفضل النغم المطربة ما سمع من الصورة الحسنة ، يحرك الشهوة والطرب جميعاً ، فتتظافر القوتان وتفعلان فعل الأدوية المركبة ، فإنها أنجح من الأدوية المفردة وأشد فعلاً.

قيل : ثم إن ذلك الطائر أسرع الذهاب ولم يعد يومه ذلك ، فظهر على ابنة الملك القلق لغيبته ، ولما كان الغد عاود الطائر الدالية فى مثل وقته بالأمس ، فسرت ابنة الملك بعودته ، فاستبشرت وارتاحت وأكلت وشربت ، وانصرف الطائر فى يومه كما انصرف فى أمسه ، فعاودها القلق لغيبته ، وبلغ الملك خبرها فى ذلك ، فأمر باصطياد الطائر فاصطيد وجعل فى قفص ، وأتحف ابنته به فاشتد سرورها ، واغتدت وتداوت ، ورأى الطبيب انتعاش قوامها فعالجها وطمع فى سلامتها ، ولم يعلم بأمرها مع الطائر ، وأن ذلك الطائر لبث عندها أياماً لا يصوت ولا يطعم شيئاً ، وأخذ حسنه فى التغيير ، فعادت الجارية إلى أسوأ أحوالها ، وجعلت تنوب لما نالها من الاهتمام بأمر الطائر مضافاً إلى مرضها ، وعلم بذلك أبوها فندم على اصطياد الطائر .

وكان يقال : لا تكن تلميذاً لمن يبادر إلى الأجوبة عن المسائل قبل أن يتدبرها ويتفكر فيما يتفرع عنها ، ويعد لدفع ما يمكن أن يعترض به على جوابه ، ويلزمه خصمه من المناقضة لأصوله ، كما إنك لا تستشير الغر الذى لا يتجاوز مبادئ الآراء إلى عواقبها ، ولكن تلمذ^(١) لمن يتفكر فى الأواخر قبل أن يجيب عن الأوائل، كما تشاور المحنك المدير لبطون الأمور وظهورها المطلع على مبادئها وعواقبها .

قيل : فلما علم الطبيب ما انتقلت حال الجارية إليه من الفساد ، عرف أن ذلك لعارض طرأ عليها ، فبحث عنه فاطلع على قصتها مع الطائر ، فأشار بأن تُنصب شباك محيطه بالبستان علواً وسفلاً ، فصنع ذلك على ما أشار ، فأطلق الطائر فى البستان ، فلما رجع الطائر إلى ما اعتاده واتثفه ، راجعته صحته

(١) أى كن تلميذاً .

وحسنه وألف تغريده ، فصلحت بذلك الجارية ، ونقّهت^(١) من مرضها .

قيل : فلما قضى القرد الخبيث ما ضربه له من المثل ، قال له الدب : قد سمعت مقالتك ووعيت حكمتك ، فمرّني بما فيه مصلحة عبدى هذا ؛ أطع أمرك ، فقال له القرد : إني أمرك أن تتأخر فى مسرحك^(٢) جزءاً من الليل ، فإن ذلك زيادة فى عمرك وطعمتك ونعمتك ، ومهيج لنشاطك وانبساطك ، ومضاعف للذة منامك ، ومساعد لمصلحة غلامك ، فشكره الدب على نصحه ، وانطلق بعبداه إلى مسرحه ، فاجتئى له فى نهاره ذلك أخابث الثمر ، فلما جاء الليل أظهر القرد نشاطاً ومرحاً ، واجتئى فى تلك الليلة أضعاف ما يجتئيه ثمرات طبيبات ، فلبث بذلك صدراً من الليل ، ثم انكفاً^(٣) به الدب إلى الغار فسجنه فيه وغدا عليه كعادته .

ولبث القرد أياماً يتظاهر فيها إذا أجنّ الليل بقوة البصر ، ويجتئى للدب أطايب الثمر ، على حال تدريج ، والدب لم تسكن نفسه إلى الثقة بالقرد ، بل يتكهن عليه أنه متصنع خادع ، وكلما زاد القرد فى تصنعه زاد الدب فى الريبة به ، وإنه ليلة من الليالى أراد الانصراف إلى مأواه فجعل القرد يماطله ويقول : ها هنا ثمرات طبيبات ، فيتأخر الدب ، لما طبع عليه من الشره والنهمة^(٤) وكانت ليلة مقمرة ، فحدث الدب نفسه بأن يتناوم ليختبر القرد ، ويمتحن ظنه به ، فتناوم وجعل يغط^(٥) ، فما كذب أن وثب القرد هارباً فجنّبه الدب بالخيزرانة جذبة شديدة ، فانقطع ظهره منها ومات .

قيل : ولما بلغ الحكيم جلس الأعرابى إلى غاية هذا المثل الذى ضربه لبهرام أمسك عن القول ، فقال له بهرام : ما أبهجنى بقربك وأقر عينى بما تفيدنى من حكمك ، وتضرب لى من أمثالك ، وتجلوه على من ملحك ، ولئن

(١) أى شفييت مع ضعف .

(٢) المسرح : المرعى .

(٣) رجع .

(٤) أى كثرة الأكل .

(٥) أى نخر فى نومه واستغرق فيه .

بقيت إلى أن تدول لى دولة لأجعلنك أول داخل على وآخر خارج على ،
وسأروض نفسى بآرائك مستعينا بالله ، فسجد حلس ودعا له بنجح الأمل .

ثم إن بهرام جور شهد والده ليلة من ليالى سروره وقد نضر النور بين
يديه ، فكان مثل الزرابى المخملة^(١) ، والتيجان المرصعة^(٢) ، فتنكر بهرام بين
يديه أيامه عند النعمان ، وانتجاعه الرياض الأنيقة ، وشربه فيها على الأزاهر
المطلولة^(٣) ، إلى ما كان ينعم به من مباركة الوحوش فى معانها^(٤) ومراعيها ،
والتفكه بطرادها واصطيادها ، فأطرق واستولت عليه الفكرة ، وعبس وتنفس
الصعداء ، وأبوه يزدجرد يسارقه النظر ، ثم إنه استفاق فنظر إلى أبيه وعلم أنه
كان بمرأى منه ، فأسقط فى يده ولم تمض إلا ساعة حتى قبض الملك بشره
ونكس رأسه ، فنهض كل من بحضرته من ندمائه وسماره ، وكانت تلك عادة
ملوك الفرس ، إذا عبس الملك منهم أو أطرق لم يبق بحضرته أحد إلا استوى
قائما على حال خشية وسكون .

وكان ليزدجرد مضحك طريف اللسان ، لطيف الفطنة ، حسن الاختراع ،
جيد البديهة حلو النادرة ، فحضر ذلك المقام وفطن للأمر الذى تنكر له الملك ،
وأن ذلك لما كان من عبوس ولده وإطراقه فى مجلس المسرة ، فحدث ذلك
المضحك نفسه بأن يحسن إلى بهرام ويصطنع عنده يدا ، فتحيل له بحيلة
يخلصه بها من غضب أبيه ، وبينما هو يناجى نفسه بالحيلة فى ذلك رفع الملك
رأسه إلى ذلك المضحك ، فنظر إليه كأنه يحركه على أن يصطنع شيئا فيه سلوة
له ، فسجد المضحك ثم جثى على ركبتيه وقال : إن العبد يستأنن الملك فى أن
يخبره عن نفسه بخبر عجيب ، فنظر إليه بهرام كالإذن له .

فقال المضحك : إن العبد كان فى حداثة سنة كلفاً بالنساء مفرطاً فى الشيق
إليه ، إلا أنه كان ملولاً لا يلبث على محبة من أحب منهن ، وكان كلما
استحسن امرأة هام بها ، وتهالك فى حبها .

(١) الزرابى ، مفردا الزربى : وهو ما يبسط ويتكأ عليه . المخملة : أى اللينة كالقطيفة .

(٢) أى التيجان التى نظمت فيها الجواهر .

(٣) أى الأوانى التى أصابها الطل وهو الندى .

(٤) أى وديانها ومنازلها .

وكان يقال : من أتبع لحظة هواه أدحضه وأهواه .

وكان يقال : كن من عينك على حذر ؛ فرب جموح حين جناه طموح عين

وكان يقال : ما أحرى الملول بأن يحرم المأمول .

وكان يقال : السامة^(١) من أخلاق العامة وليست من أخلاق السامة^(٢) .

وكان يقال : التقل من حلة إلى حلة كالنتقل من ملة إلى ملة .

ثم قال المضحك : وإن العبد دخل بلاد السند^(٣) فبينما هو يطوف ببعض مدنهم رأى امرأة لم ير قبلها فى حسن الصورة ، وامتداد القامة ، ورشاقة الحركات ، ولباقة الإشارات ، وسحر الطرف ، وتألق الظرف ، فتبعها العبد وهو لا يرى مواطئ قدميه من الدهش حتى بلغت منزلها فدخلته ، ولزم العبد باب منزلها ليلا ونهارا ، فأرسلت تستعفيه من لزوم بابها وتحذره سطوة أهلها ، فشكا العبد إلى رسولها ما يلقاه من الشغف ، وأعلم الرسول أنه لا معدل له عن بابها ، وأنه مستميت فى طلبها ، فلهيت عن العبد مدة ، ثم أعادت الرسول إليه ، فرده العبد إليها بمثل كلامه الأول ، فأرسلت إلى العبد تقول له : إنى أظن بك الملل والغدر ، ولولا ذلك لأسرعت إلى مساعدتك وإنى متزوجتك بشرط الوفاء ، فإن غدرت أهلكتك بعد أن أنكل بك نكالا يضرب به المثل ، فإن التزمت هذا الشرط فأقدم وإلا فانح بنفسك قبل أن يتعذر عليك الخلاص .

وكان يقال : أربعة ترفع الرحمة عنهم إذا نزل بهم المكروه : من كذب طبيبه فيما يصف له من دائه ، ومن تعاطى ما لا يستقل بأعبائه ، ومن بدد ماله فى لذاته ، ومن أقدم على ما حذر من آفاته .

وكان يقال : من بصرك فقد نصرك ، ومن وعظك فقد أيقظك .

وكان يقال : من أوضح وبين فقد نصح وزين ، ومن حذر وبصر فما غدر

(١) المتر .

(٢) السامة : الحيوانات وناماشية .

(٣) السند : بلاد بين بلاد الهند وقرمان وسجستان فتحت فى أيام الحجاج بن يوسف الثقفى .

ومذهب أهلها الغالب عليها مذهب أبى حنيفة النعمان . معجم البلدان (٦٨٣) .

ولا قصر .

قال المضحك: فالتزم العبد الشرء عطى من نفسه الموثيق على الوفاء ، فتزوج العبد المرأة وبلغ منها أمنيته ، فلبث معها مدة ، فزارتها يترب^(١) لها فلمحها العبد فأعجبته ، ومالت نفسه إليها ، فتبعها العبد إلى منزلها وجعل يرأسها ويلزم بابها ، فاقتربت منه وشكته إلى امرأته ، فعاتبته امرأته على ذلك وزجرته ، وأذكرته العهود ونهته ، فازداد لجاجاً^(٢) ، فلما رأته ذلك منه سحرته فصار أسود اللون مشوه الوجه ، وجعلت تستخدمه فى كل مهنة ، فما شغله ما هو فيه عن أن هوى أمة سوداء ، فجعل يتبعها فى تصرفها ويتعلق بها ويؤذيها ، فلما كثر ذلك على الأمة شكته إلى امرأته التى سحرته .

وكان يقال : إنما كان المطبوع أملك به من أدب المؤدب ؛ لأن الطبع أصلى وتمده القوى الناشئة معه ، فهو أملك بالنفس التى هى محله لاستيظانه أياها وكثرة أعوانه بها ، والأدب طارئ على المحل غريب به .

وكان يقال : أضل المؤدبين سعياً من رام من المتأدب أن يعاونه على نفي طبعه عنه ، وكيف وطبعه أولى به وأقرب إليه وأثر عنده من مؤدبه ؟ لكن المؤدب الماهر من طالب المتأدب بستر المنموم من طباعه وتعميته والتورية عنه .

قال المضحك : فلما بلغ امرأة العبد ماكان منه ، اشتد غضبها عليه ، ثم سحرته فصار حماراً ، فجعلت تكرهه^(٣) ممن يستعمله فى أشق الأعمال ، ويستحمله أثقل الأعمال ، فلبث بذلك مدة طويلة ولم يشغله ما هو فيه من البلاء عن أن يهوى أتانا^(٤) ، واشتد شغفه بها ، وكان كلما رآها نهق وطلبها أشد الطلب ويرد عنها بالضرب ، فيلقى من ذلك بلاء شديداً ، وانفق أن امرأة العبد الذى سحرته زارت ابنة ملك تلك المدينة فكانت معها فى علو لها تشرف منه

(١) صديقة .

(٢) إلحاحاً .

(٣) تؤجره .

(٤) أنثى الحمار .

على ما حوله ، وكان العبد فى ذلك اليوم قد استأجره شيخ كبير السن ضعيف البدن ، فاحتمل عليه أواتى فخار فى جولقين^(١) ، ومر به على قصر ابنة الملك ، فرأى عند القصر تلك الأتان التى يهواها ، فما ملك نفسه أن نهق وقصدها ، وفعل بها ما تفعل الحمير عند ذلك ، وجعل الناس يضربونه من كل جانب والفخار يتساقط على ظهره ، والشيخ صاحب الفخار يصيح ويستغيث ، وجعل الصبيان والسفلة يغططون^(٢) من كل جهة ، والأتان فارة بين يديه ترمحه وهو يطلبها على تلك الحال .

فأرأت ابنة الملك ذلك كله فأعجبها وأضحكها ، فقالت لها امرأة العبد التى سحرته : يا ابنة الملك ألا أخبرك بأعجب مما رأيت من هذا الحمار ؟ قالت لها : بلى فافعلى ، فقالت : إنه زوجى ، وقصت عليها خبر العبد ، فاشتد تعجبها مما سمعته وسرت به ، ثم سألتها أن تبطل سحر العبد وتخلص سبيله ، فأجابتها إلى ذلك فأبطلت السحر عن العبد فسار بشراً سوياً ولم يكن له هم إلا الفرار من بلاد السند .

فلما انتهى المضحك إلى هذا المبلغ سكت ، وقد كان الملك يزدجرد اشتد ضحكه ؛ لما سمعه من حديث المضحك ؛ ولما شاهده من حركاته فى وقت حديثه ، فلما سكن ضحكه وعاوده الوقار والأبهة ، أقبل على المضحك وقد اكفهر^(٣) له فقال : ويحك ما حملك على أن تكذب هذه الكذبة الشنعاء ، كأنك ما علمت أنا نحظر الكذب على رعينتا ونعاقبها عليه ، وقد قالت الحكماء : الكذب كالسموم التى تقتل إذا استعملت مفردة ، وقد تدخل فى تراكيب الأديوية فينتفع بها ، فلا ينبغى للملك أن يطلق الكذب إلا لمن يستعمله فى المصالح ، كالكذب فى كيد الأعداء ، وفى تألف البعداء ، كما لا ينبغى أن يطلق ملك تلك السموم التى ذكرناها إلا للمأمونين عليها المانعين لها من المفسدين .

(١) الجولق : كلمة فارسية وهو العجل ، ما يحمل عليه من صوف وشعر .

(٢) أى يصدرون أصواتاً ماجنة تدرب أصوات القطا .

(٣) أى عبس .

فقال المضحك : أيها الملك السعيد إن هذا مثل تضمن من الحكم ما يعود بمصلحة المرتاض به^(١) ، والذي حملنى على نكره أمر يلزم ستره عن غير الملك .

فأشار الملك إلى جلسائه ، فقاموا فخرجوا عن مجلسه ، ثم قال للمضحك : هات ما عندك .

فقال المضحك : إن عبد الملك يخبره أن ولده الفاضل بهرام عاشق .

فقال الملك : لمن ؟ قال : لابنة الأصبهيد .

فقال الملك : لقد كان من بهرام فى هذه الليلة ما يدل على صدقك ولا لوم على ولدنا فى ذلك ، إذ لم يضع من نفسه بمحبة ابنة حافظ ملكنا وسيد أولياتنا ، وسيلبغ ولدنا أمنيته ويحسنُ إليه باطلاعنا على أمره ، فاكنتم ذلك حتى ينفذ أمرنا فيه .

ثم إن يزجرد أذن لندمائه ، وسماره ، ومطريبيه ، وولده فعادوا إلى مجلسهم وأخذوا فيما كانوا فيه ، ورجع إلى يزجرد سروره وطربه إلى أن انقضى مجلسه وخرج القوم من عنده ، وتبع المضحك بهرام وأخبره بالخبر على وجهه فشكر له ووصله، ثم إن يزجرد أنكح ابنه بهرام ابنة الأصبهيد ، ولم يزل بهرام يروض نفسه على الرضى بخدمة أبيه حتى انقادت لما أراد منها ، فلبث بذلك إلى أن قدم أخ قيصر على يزجرد ساعيا فى الصلح والهدنة والموادعة ، فأكبر يزجرد قصده، وعرف له فضله وأحسن نزله .

فلما رأى بهرام منزلة أخى قيصر عند يزجرد استشفع به عنده فى رده إلى النعمان ، فشفعه وأذن لبهرام ، فتحول إلى بلاد العرب فكان فيها على ما أحب ، إلى أن هلك أبوه وورث ملكه .

قال محمد عفا الله عنه : هذه خاتمة سلوانة الرضى ، وقد عن لنا أن ننكر ما تكمل به بهجتها ، وهو الإخبار عن مهلك يزجرد وما أحدث رعيته بعده

(١) أى المقتدى به .

وكيفية مصير الملك إلى ابنه بهرام ، وذلك مما ذكر المعتنون بأخبار ملوك
الفرس ، أن يزجرد لما كثر عسفه^(١) ، واشتد عتوه^(٢) ، وعدل عما نهجه سلفه
من العدل والرفقة ، اجتمع وجوه رعيته من نوى الصلاح عندهم فدعوا الله
على يزجرد وسألوه معافاتهم منه ، فرحم الله ضراعتهم واستجاب دعاءهم .

وبينما يزجرد جالسا في منتزه له دخل عليه حاجبه ، فأخبره أن فرسا
متوحشا عريانا قد جمع محاسن صفات الخيل ، فهو نو صورة لم ير الراؤن
مثلا ، جاء يشتد عدوا حتى قام بباب الملك ، وأن الناس تهيّبوه فلم يجترىء أحد
على أن يذنو منه ، وأن الخيل قد نافرته فما تقدم عليه ، فاستخف يزجرد ما
سمعه من وصف الفرس ، فنهض نحوه ، فلما عاينه ملئ إعجابا به ودنا منه ،
فخضع له الفرس فمسح يزجرد بناصيته ووجهه ، وقبض بناصيته ، وأمر
بإسراجه وإلجامه ، فألجم وأسرج .

فيقال : إن يزجرد استدار بالفرس ومسح كفله^(٣) فرمحه الفرس رمحة خر
منها ميتا ، وملا الفرس فروعه عدوا ، فما عرف إلى أين توجه ، ويقال : بل
ركبه يزجرد وحركه فسبق الأبصار حتى أتى البحر فاقتحم به والله أعلم أي
ذلك كان .

ولما رأى الفرس أن الله قد أراحهم منه ، أجمعوا على أن يخرجوا الملك
من ولد يزجرد خوفا من أن يسن فيهم مثل سنة أبيه ، فملكوا رجلا من أبناء
ملوكهم السالفة يقال له : كسرى ، وكان مرضيا عندهم ، فمحا ما شرعه
يزجرد من المظالم وأعفى الفرس من جميع ما كرهوه ، فعرف بركة رأيهم في
تمليكه .

وانتهى الخبر إلى النعمان فأطلع عليه بهرام وأخبره أنه عاضده وناصره
وبادل نفسه وماله في مرضاته ، فشكر له بهرام وأمره بشن الغارات على
أطراف بلاد الفرس مع الكف عن سفك الدماء ، فأمر النعمان العرب بفعل ذلك

(١) ظلمه .

(٢) فساده وقسوته .

(٣) عجزه ومؤخرته .

ففعلاه ، فاشتد ضررهم وأرسلوا إلى النعمان يستعفونه ويسألونه العود إلى إحسان المجاورة ، فلما انتهى الرسل إلى النعمان قال لهم : إنما أنا خادم الملك بهرام أفعل ما أمرنى به فاذهبوا إليه ، فذهبوا إليه فلما عاينوه ملأ عيونهم جمالا وصدورهم جلالا ، فخرؤا له ساجدين وسألوه العفو والصفح ، فأجمل خطابهم وبسط آمالهم ، وأمرهم أن يبلغوا من وراءهم أنه حسن الرأى فيهم مؤمل لإصلاح شأنهم ، وأنه متوجه إليهم ليتولى إخبارهم عن نفسه وإقامة الحجة عليهم ، فليتأهبوا لذلك .

ثم صرف الرسل مكرمين وأمر النعمان فكتب له عشر كتائب فى كل كتيبة ألف فارس من أنجاد^(١) العرب ، ثم سار فيهم ، وسار النعمان بين يديه فى جيش كثيف ، فلم يكن عند الفرس لهم مدافع حتى انتهوا إلى دار الملك ، فنزلوا بظاهرها ، فخرج إليه زعماء الفرس وحفظة دينهم ، ونصب لبهرام كرسي فجلس عليه ، وقام النعمان بين يديه ، وتقدم إليه القوم فسجدوا له وقاموا لديه ، فأذن لهم فى الكلام فتكلم رئيس الموابذة^(٢) فحمد الله وذكر رأفته بخلقه ، ثم ذكر ما سار به يزدجرد من الجور وما فعل الله به ، ثم أتبع ذلك بذكر كراهة الفرس لتمليك من ولده يزدجرد ؛ لما يتخوفونه من سلوك سبيل والده ولا سيما وقد نشأ بين الأعراب الذين يصلحون جسومهم بإخراب الأرض ، وسأله أن يعفى الناس مما كرهوه ؛ فإنهم لا يملكونه طائعين ولا يقصرون فى دفاعه عن ذلك بكل ما أمكنهم .

فلما قضى رئيس الموابذة كلامه ، تكلم بهرام فحمد الله سبحانه وشكر نعمه عنده ، وصدق رئيس الموابذة فيما نسب إليه يزدجرد من الجور والعسف ، ثم اتبع ذلك بذكر ما كان يتمناه من مصير الملك إليه ؛ ليزيل رسوم الجور ويشد قواعد الحق ، وينيق الرعية من حلاوة رأفته وإحسانه أضعاف ما أذاقهم أبوه من غلظته وإساءته .

ثم أعلمهم أنه لا يترك تراث أبيه ولا يألو جهداً فى تحصيله ، وأنه مع ذلك يدعوهم إلى أن يضعوا تاج الملك وزينته بين أسدين ضاربين ويحضر هو

(١) أنجاد ، مفردا نجد : وهو الشجاع السريع الإجابة إلى ما دعى إليه .

(٢) الموابذة ، مفردا الموبذ : وهو قاضى المجوس .

وكسرى المتغلب على ملك أبيه ، فمن أخذ التاج والزينة من بين الأسدين ؛ فهو بالملك أولى.

ونكر لهم أنه إنما يفعل ذلك رافة برعيته ، وصونا لهم عن مقاومته ودفاعه، وثقة بنصر الله وعونه لما يعلمه من حسن طويته وخلص نيته ، ورغبته فى إصلاح الأرض وأهلها .

فرضى زعماء الفرس بما بذله بهرام من نفسه ورجوا الراحة منه بذلك من غير مشقة تتألم فى دفعه ، وانقلبوا عنه متعجبين من جماله وكماله وفصاحته وأبهته .

ثم عمدوا لأسدين ضاريين فجوعوهما ، وأخرجوهما إلى ظاهر المدينة فى قفصين من حديد ، وفى عنق كل واحد منهما سلسلة فى طرفها وتد من الحديد ، فضربوا الوتكين فى جهتين مختلفتين وجعلوا بينهما بقدر ما إذا خرج كل واحد من الأسدين فقصد الآخر بلغ إليه ، وجعلوا تاج الملك وزينته بينهما ، وبحيث يمكن كل واحد من الأسدين الوصول إليهما والذب عنهما ، وفتحوا القفصين عن الأسدين فخرجا ، وقد اجتمعت أمة عظيمة من الفرس واجتمع العرب فقاموا بإزائهم ، فخرج بهرام من قبته وقد شد وسطه بمنطقة^(١) ، وجمع نيوله إليها ، فأقام بإزاء الأسدين بين الصفوف ونادى كسرى : أن اخرج أيها المتوثب على ملكنا المتغلب على تراثنا ، فخذ تاج الملك الذى انتزعتة من أهله .

فأجابه كسرى إنك أولى بالتقدم على ما أعطيت من نفسك ؛ لأنك الداعى إليه المتبرع له ، ثم إنك تطلب الملك بوراثة وأنا غاصب ، فدنا بهرام من الأسدين ولا سلاح معه ، فلما رأى رئيس الموابذة أن بهرام قد عزم على فعل ما بذل من نفسه، ناداه : يا بهرام إنك مستميت ولا إثم علينا فبك ، فقال بهرام : أجل أنا فعلت ذلك بنفسى ؛ ولكن لראفتى بكم ولا بد من فعله ، فقال له موبدان : إن كنت لابد فاعلاً فبء إلى الله بذنوبك وتب إلى الله واستعن .

فذكر بهرام نذوبه وتاب إلى الله منها وسأله العون ، ثم دنا من الأسدين فقصده الأسد ، فلما قاربه راغ عنه بهرام روعة ، ثم وثب من الأرض ، فإذا

(١) النطاق وهو ما يشد به الوسط .

هو على ظهر الأسد ، فضم الأسد بفخذه ضمة تباد لها الأسد وفرج بين قوائمه وثبت مكانه يلهث ، وقصده الأسد الآخر فانتهى إليه حتى ألصق رأسه برأس الأسد الذى تحته ، ولم تمكنه السلسلة من زيادة التقدم ، فقبض بهرام على أذنيه ، وجعل يضرب برأسه رأس الأسد الذى تحته حتى سقطا جميعا ميتين ، فقام بهرام قائما على قدميه وحمد الله على صونه وعونه وأزال نيوله من منطقته ، وتناول تاج الملك فوضعه على رأسه ، فناداه كسرى الذى كان للفرس ملكوه ليُهَيَّنَ بهرام الملك بن الملك ما أعطاه الله من ميراث سلفه ، فكلنا له سامع مطيع ، ثم ارتفعت أصوات الفرس بالدعاء له ، وتقدم إليه موبدان موبذ فأخذ بيده ، وأجلسه على سرير ملكه ، وشد عليه زينة الملك ، وباء^(١) له بالطاعة وتتابع زعماء الفرس على ذلك .

وركب بهرام فدخل المدينة ونزل بقصر أبيه ، وفرق الأموال فى نوى الحاجات وأهل النجدة ، وحبا النعمان وشرقته وتوجه ، وأجاز العرب الذين صحبوه بأسرهم على أقدارهم ، ثم إنه وفى لرعيته بمواعيد عدله وإحسانه ، ولم يزل محمودا فيهم حتى هلك ، وقد دون الفرس له أخبارا عجيبة أودعنا منها خبرين نادرين كتابنا المسمى (درر أنباء نجباء الأبناء) .

وبعد ؛ فالحمد لله بما هو أهله وصلى الله على محمد وأهله .

(١) أى نفر واعترف .